المحاضرة الثانية: القواعد المعرفية والمنهجية للبحث الميداني

المقدمة: يكتسي البحث الميداني في حقل الدراسات الأنثروبولوجية أهمية بالغة، فالحقيقة والمعرفة العلمية المنشودة تتأتى من الميدان ومن المعايشة المباشرة لتلك المجتمعات. إلا أن هذه العملية لا تتم بشكل عشوائي، فهي محكومة بجملة من الضوابط المعرفية والمنهجية، لذلك فإن نجاح الباحثين في النزول للواقع الميداني وسبر أغوار المجتمعات البحثية، مسألة مقرونة أولا وأخيرا بسلامة الإجراءات والتدابير المعمول بها في هذا الجانب، ومدى القدرة على الالتزام بها من قبل الباحثين.

أولا. لمحة عن تطور القواعد المعرفية والمنهجية للبحث الميداني: تتضمن طرق البحث في الأنثروبولوجيا **طرق تصميم البحث**، وطرق تنفيذ **العمل الميداني الاثنوجرافي**، وطرق **تحليل وتقويم البيانات** التي يتم جمعها. فإلى غاية القرن التاسع عشر (19) ميلادي، لم تكن طرق البحث الأنثروبولوجي قد بلغت مستوى عاليا من التطور بعد، حيث اقتصر الكثير من الكتاب على جمع نتف وشذرات تتسم بالغرابة من مناطق مختلفة من العالم، أو من داخل منطقة جغرافية بعينها، وكانت تلك الشذرات يعاد تجميعها فيما بعد وفقا للنظرية التطورية أو الانتشارية الخاصة التي يراد دعمها وتأييدها.

لتشهد شروط وقواعد الدخول إلى البحث الميداني منذ عهد "**مالينوفسكي**" تطورا سريعا فمن أجل إعطاء طابع منهجي علمي لهذا النوع من الأبحاث، وتجنب أن يواجه الباحث تعطيلا مفاجئا، تم باكرا جدا تحضير كتب إرشادات للبحث الميداني قريبة من البيانات التفصيلية عن معالجة المواضيع وطرح الأسئلة، والتي يعود تاريخها إلى فترة قديمة بقدر تاريخ الاستعمار القديم والإرساليات التبشيرية. والنموذج الحديث لها يبقى ملاحظات واستفسارات عن الأنثروبولوجيا، كتيب شبه رسمي عن الأنثروبولوجيا البريطانية، نشر تحت رعاية المعهد الملكي للأنثروبولوجيا، يعود تاريخ طبعته الأولى التي ما زالت تستعمل إلى عام 1874 ميلادي (ظهرت الطبعة السادسة عام 1951).

لتتحول أنثروبولوجيا القرن العشرين (20)، تحت تأثير **بواس ومالينوفسكي** وغيرهما، من هذا التجميع التعسفي للمادة الإثنوغرافية لتبرير مواقف نظرية مسبقة، إلى الدفاع عن الدراسة الشاملة المتكاملة للثقافات غير الغربية. وهكذا أصبح إصرار **بواس** على الخصوصية الثقافية، وعلى جمع المادة الميدانية بشكل منهجي ومتكامل.

ثانيا. القواعد المعرفية للبحث الميداني: نميز في هذا الإطار بين نوعين من القواعد المعرفية، النوع الأول خاص بالبحوث الميدانية التقليدية، والنوع الثاني خاص بالبحوث الميدانية الحديثة. **فما هي القواعد الخاصة بكل واحد منهما؟**

1. القواعد المعرفية للبحث الميداني التقليدي: تتعدد وتتسع قائمة القواعد المعرفية المندرجة تحت هذا الإطار، والتي من جملتها اخترنا ما يلي:

- ليس هناك مجتمع يكتم كل شيء ولا أخر يقول كل شيء، وأن الانطلاق بين ما يمكن أن يقال وما لا يجب قوله قد يتغير كثيرا من مجتمع إلى أخر، لكن في حالة كهذه، إن المجتمع هو الذي يقرر دائما في النهاية. فالكلمة لا تقال اعتباطا في أي مكان، ولا في أي زمان. وأبرز مثال يمكن أن يسوقه في هذا الصدد هو تجربة الإثنولوجي الفرنسي: **غريول** الذي اشتغل في بلاد **الدوغون** منذ عام 1931، لكن العجوز لم يتكلم باسم ذويه إلا عام 1946، فيما كان هذا الإثنولوجي وفريقه يستأنفون بحثهم الميداني الذي كان قد قطعته الحرب العالمية الثانية أنذالك.

- تعلم لغة الأخر: إن الحالة الميدانية هي حالة تواصل، حيث يطلب بشدة من المبتدئين أن يعرفوا لغة المجتمع المضيف أو لغة محلية للتفاهم بين الشعوب المجتورة على الأقل للتمكن من مراقبة أقوال المعنيين. وذلك لأن غائية الحالة الميدانية هي جمع المعلومات، وهذه الأخيرة يجب أن تتم دون استبعاد مسبق لبعض أنواع المعطيات، أو جعل غاية التفتيش موضوعية على الأقل في المرحلة الأولى.

ولعل من أبرز نقاط الضعف التي طبعت الدراسات الحقلية الأولى التي قام بها الأنثروبولوجيون أنفسهم تمثلت في جهلهم باللغات المحلية والتي تتطلب وقتا لتعلمها، إن عدم القدرة على ذلك بسبب قصر مدة الدراسات الحقلية، كان يؤثر أيضا في عدم توطيد الثقة بين الأهالي والباحثين، لكن انجذاب بعض العلماء من تخصصات أخرى، على غرار كل من: العالم الحيواني **هادون Alfred Cort Haddon**، والعالم النفسي وطبيب الأمراض العرضية **ريفرز William Halse Rivers**، والباحث والطبيب في علم الأمراض **سيلجمان Charles Gabriel Seligman** أثرى حقل الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

- محاولة التكيف مع الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع سواء فيما يتعلق بشكل الملبس أو نوع الطعام أو آداب التحية والمجاملة. كما أن عليه ألا يحاول إصدار أحكام تتعلق بالقيم السائدة في المجتمع، بل يحاول أن يتقبلها كما هي، وأن يحاول إظهار نوع من التوافق معها. وأن يبدأ في دراسته بالتركيز على جمع المعلومات

المحايدة – أي التي لا تتصل اتصالا مباشرا بالجوانب التي يقاوم أعضاء المجتمع في البداية الإدلاء ببيانات عنها، إما لما يحيط بها من تقديس أو لتوقعهم أنها لا تتفق مع توقعات وقيم الباحث، أو لتناقضها مع نسق القيم أو التقنين الرسمي السائد.

2. **القواعد المعرفية للبحث الميداني الحديث**: ونظرا لأن البحوث المعاصرة أصبحت تركز في المقام الأول على دراسة مشكلة أو مشكلات بعينها، وأخذت تبتعد عن الطابع الشمولي الكلي وترتبط بمجالات بحثية متباينة مثل: **الأنثروبولوجيا الايكولوجية، دراسات القرابة**.. إلخ.

لم تستمر الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة في اتجاهها نحو الاهتمام فقط بدراسة الأنماط المجتمعية التقليدية أو المنعزلة بوجه خاص.

لذا فلقد اتبع الباحثون المحدثون طرقا جديدة في دراساتهم الأنثروبولوجية الحقلية، زاوجوا فيها بين الطريقتين السابقتين أعني طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة الاعتماد على الروايات التي يدلي بها كبار السن والعارفون بالتقاليد والعرف في المجتمع، وبين طريقة دراسة الحالة ودراسة تاريخ حياة الأفراد والاستبيانات وكشوف البحث، فضلا عن الاعتماد على المعلومات الإحصائية التي تتوفر في النشرات والبحوث التي تصدرها الهيئات المختلفة في المجتمع، وبخاصة تلك النشرات والبحوث الخاصة بتعداد السكان، والإحصاءات الحيوية.. إلخ.

ولعل الدراسة التي أشرف عليها **أوسكار لويس** بعنوان: " **لافيدا**" تعطينا مثالا على تنوع الطرق التي يستخدمها الباحثون الحقليون المحدثون للتعمق في فهم جوانب الحياة وجونب البناء الاجتماعي في المجتمعات المحلية التي يتوفرون على دراستها. حيث يعني **لويس** في هذه الدراسة بحالات عدد معين من الأسر، وتتبع تاريخ حياة أفرادها كما يروونه بأنفسهم، وفيهم يزاوج بين تلك الطريقة التقليدية، وبين تطبيق عدد من الاستبيانات وإجراء المقابلات وتسجيل تاريخ الحياة، والدراسة الكلية الشاملة لحالات بعض الأسر، والاستعانة بعدد من الطرق المستخدمة في الدراسات السيكولوجية، مثل: **اختبار تفهم الموضوع**، و**اختبار الروشاخ**، و**اختبار تكملة الجملة**... إلخ.

- تحديد المكان والزمان المناسبين للقيام بالعمل الميداني: بمعنى لا بد من تحديد المنطقة عموما، ثم تحديد الموقع أو المواقع على وجه الدقة، والتي سوف يتم العمل فيها.
- تحديد المادة المراد جمعها: ومن ثمة تحديد الوقت الكافي لجمعها. إن اعتبارات الوقت، تقتضي أخذ المفاجآت والظروف غير المنظورة، وهي كثيرة خاصة في الدول النامية في الحسبان.

الاطلاع على ما كتب حول الموضوع: أي مادة مكتوبة عن المنطقة أو الموضوع المراد جمعه، لأن المعلومات المتوافرة في هذا تساعد على تحديد خطط السفر وتسهل المهمة.

الاتصال بغيره من الباحثين: ونقصد به الذين سبقوه لنفس الميدان تحديدا لتنفيذ مهام مشابهة. فهذا قد يوفر معلومات عن الرواة الجيدين، وعن أسماء المسؤولين وقادة المجتمع المعني. ومن ثمة يمكن من الاتصال بهؤلاء القادة، ما يساعد على توفير معلومات عن المنطقة وترتيب الإقامة وما إلى ذلك.

الاستماع ومشاهدة أي تسجيلات عن المنطقة: على غرار الذخيرة اللغوية أو الغنائية لأحد مناطق أو مجتمعات الدراسة التي تم تسجيلها سلفا من قبل دارسين آخرين، حيث من شأن ذلك أن يسهل تعرف الباحث على الكثير من الخصائص وتفاصيل حياة هذه المجتمعات مما يسهل له الولوج فيه، والتواصل بأكثر سلاسة مع سكانها.

ثالثا. القواعد المنهجية للبحث الميداني: ونقصد بها جملة التدابير والإجراءات المنصوح بمراعاتها عند إجراء الدراسات الحقلية. وهنا نسجل أن هذه القواعد ليست ثابتة في كل الأزمنة والأمكنة، حيث نجد اليوم أن التفاصيل المتبعة في الأنثروبولوجيا الحديثة تختلف في بعض جوانبها عن تلك التي كان معمولا بها في مواضيع الأنثروبولوجيا التقليدية، كما سنقف عليه في العرض الأتي.

1. القواعد المنهجية للبحث الميداني التقليدي: وهي القواعد المتبعة في الدراسات التي تستهدف المجتمعات البسيطة تحديدا (المجتمعات البدوية وشبه البدوية.. إلخ)، ونتلمس تفاصيلها فيما ذهب إليه **ليفي ستروس** بعد عودته من **الغابة الأمازونية**، حيث يقول في هذا الصدد:

" يجب أن تبكر مع طلوع الفجر، وتبقى مستيقظا حتى ينام أخر شخص، وأحيانا أن ترصد الرقاد، أن تجتهد في البقاء غير منظور مع كونك حاضرا أبدا، أن ترى كل شيء، وتحفظ كل شيء، تدون كل شيء، وتبدي تطفلا قد يكون مخزيا، وتستجدي المعلومات من غلام أشعث، وتبقى جاهزا دائما للاستفادة من لحظة بشاشة أو تغافل، أو أن تعرف جيدا أن تكبت خلال بعض الأيام كل فضول وأن تقبع في الرصانة التي يفرضها تغير في مزاج القبيلة " .

هذه التفاصيل التي كشف عنه **ليفي ستروس**، لا تشكل خلاصة القول ومنتهاه، بل يجب أن ترافقها مجموعة أخرى من الخطوات الإجرائية، والتي يمكن تلخيصها في مجموعة النقاط الآتية:

أ. **الدخول في السياق الميداني للبحث**: ويتم ذلك عبر الاتصال بالشخصيات المهمة وبعض أفراد العينة وغيرهم ممن يمكنهم المساعدة في هذا المجال. وهنا يمكن أن يكون دخول الميدان بشكل علنا وبشكل رسمي أو بشكل سري حيث لا تعرف هوياتهم.

ب. **التخفي**: القواعد الموجهة هنا هي: لا تكشف هويتك ولا خطة البحث ولا أهدافه، حيث يتفاعل ويلاحظ لكن لا تؤثر، حافظ على سلامتك وسلامة ملاحظاتك وموضوعات بحثك.

ت. **لمراقبة والاستماع والتعلم**: يقوم الباحث هنا بملاحظة السياق المادي والاستماع إلى ما يحدث فيه، وإلى المشاركين وعلاقاتهم وتفضيلاتهم، ويحدد الباحث المجموعات الفرعية ويدون الملاحظات ويسجل الحوارات، ويتعامل مع الملاحظات وترميزها وفق نظام معين.

ث. **الخروج من الميدان**: وتعني الانسحاب من مجال المعاينة وقطع العلاقات والانفصال العاطفي.

النقاط السالفة الذكر على أهميتها، إلا أن هناك عدد منها لا ينطبق على جميع أنواع البحث الإثنوغرافي، كما هو الحال في الخطوتين (**ب**) و(**ج**). فبالنسبة إلى الخطوة (**ب**) لا يبقى جميع الباحثين الإثنوغرافيين متخفين في عملية البحث الميداني. وهناك دراسات كثيرة ينخرط فيها الباحثون في شبكة الثقافة ويعيشون بين أفراد المجتمع وكأنهم منهم لفترة طويلة، لكنهم يقدمون أنفسهم كغرباء وباحثين، وبذلك فهم لا يكشفون هوياتهم فحسب، بل حتى طبيعة دراساتهم وأهدافها أيضا.

أما بالنسبة للخطوة (**ج**)، فإن جمع البيانات يقتضي أكثر من مجرد الملاحظة والاستماع، فهناك المقابلات والتفاعلات التي تتمتع بدرجة فاعلية الملاحظة نفسها في البحث الإثنوغرافي.

وهنا نود أن نلفت الانتباه في هذا الإطار إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي أن اختيار المسكن الذي يقيم فيه أعضاء فريق البحث يعتبر أمرا على درجة عالية من الأهمية. حيث لا بد في اختيار ذلك المسكن أن يكون في وسط المنطقة التي يشغلها المجتمع، بحيث لا يقع مثلا في الضواحي أو في المناطق التي يسكنها من يعرفون بأعضاء الطبقة الأرستقراطية أو الفئات المنعزلة من طبقات وفئات هذا المجتمع، لأنه يتوقف على هذا الاختيار مدى الصعوبة أو السهولة في تكوين العلاقات الشخصية التي يمكن أن تكون أساسا للعلاقات المهنية التي تربط بين الباحث وأعضاء المجتمع

2. **القواعد المنهجية للبحث الميداني الحديث**: اليوم، استحدثت الأنثروبولوجيا المعاصرة مجموعة من أدوات البحث المتخصصة والتي ترتبط بمجالات بحثية متباينة مثل: **الأنثروبولوجيا الايكولوجية، دراسات القرابة**.. إلخ.

وتضم الطرق التي شاع استخدامها الآن: **المقابلة والاستبيان، ودراسة الحالة، والمسوح واستخدام الخرائط، واستخدام المادة التاريخية والأرشيفية** لتوفير البعد الزمني للموضوع، واستخدام البيانات الإحصائية أو بيانات التعداد.. إلخ، كما تستعمل الآن أيضا طرق التسجيل الصوتي والفوتوغرافي للمساعدة في جمع المادة. وطور ميدان الأنثروبولوجيا البصرية وميدان الفيلم الإثنوجرافي طرقا تزداد اتقانا باضطراد لإدماجها ضمن عمليات تصميم البحث وتحليل البيانات .

فما هي الخطوات التي يقوم عليها البحث الميداني الحديث؟

- الخطوة الأولى: تحديد موضوع البحث: ونعني بها تكفل الباحث بتحديد أبعاد الموضوع الذي سينكب عليه بالبحث والدراسة. وضبط التصورات المتعلقة به.
- الخطوة الثانية: تحديد منهجية البحث: أي طريقة الاقتراب والتعاطي المنهجي مع تفاصيل الموضوع، فعندما يستخدم الباحث الطريقة الكمية يجب أن يكون الموضوع معرفا بوضوح ومختزلا ومحددا إجرائيا إلى حد معين. أما في البحث الكيفي فلا ضرورة لهذا التحديد والدقة، حيث يكون الموضوع عاما ومرنا.
- الخطوة الثالثة: اختيار العينة: تحدد العينة في البحث الكمي قبل الشروع في إنجاز تفاصيل الدراسة، أما في البحوث الكيفية فتبقى العينة مفتوحة جزئيا لتستكمل في أثناء الدراسة.
- الخطوة الرابعة: جمع البيانات: تجمع البيانات في البحث الكمي كما هو محدد ف تصميم البحث، أما في البحث النوعي فتكون العملية أقل ضبطا وأكثر مرونة. وفيما يلي وصف مختصر لما يجري عادة في هذه الخطوة من مراحل البحث.

أ. الدخول إلى ميدان البحث: وتسمى هذه الخطوة في البحث النوعي ب: "الاندماج مع المجتمع". ومن المهمات الضرورية التي يجب أن تنجز في هذه المرحلة: الدخول إلى ميدان البحث وتحقيق القبول من أفراد الدراسة وتحديد بيئة البحث وتعريفها وبناء علاقات واتصالات مع أفراد الدراسة.

ولا يمثل دخول الميدان عادة خطوة صعبة، ولكن ثمة حالات يكون فيها الاندماج مع أفراد الدراسة صعبا أو مستحيلا. ومن المهمات الضرورية أيضا في هذه المرحلة: تحديد الشخصيات المهمة في أفراد الدراسة، ومناقشة طريقة الدخول إلى مجتمع الدراسة، واختيار طرائق التواصل والاندماج مع المجموعة.

ب. جمع البيانات: بشكل عام يؤدي جمع البيانات إلى توفي معلومات ثرية، أو وصف مفصل. ويقتضي جمع البيانات ملاحظة جوانب متعددة مثل الأمور المحيطة بأفراد الدراسة وبنية الأسرة ومحتويات البيوت

والألوان ودرجة الحرارة وحالة الطقس. وتشتمل الملاحظة أيضا طبيعة المبحوثين وأنماطهم وأعمارهم والعرق الذي ينتمون إليه والجندر والحالة الاجتماعية والعلاقات والاتجاهات نحو موضوع البحث. وعلاوة على ذلك، يتعلق جمع البيانات بمحتوى الكلام وسياقه وبالتواصل، بما في ذلك التواصل اللفظي ولغة الجسد والتعابير الانفعالية. كما قد يتضمن جمع البيانات أيضا مقابلات وتفاعلات مباشرة وجها لوجه، ما يؤدي إلى جمع بيانات متنوعة.

ت. تدوين الملاحظات: ونقصد بها تحويل الملاحظات إلى ملاحظات مكتوبة منظمة لاستخدامها في المستقبل. وتتعلق هذه الملاحظات بخبرات البحث اليومية وعمليات الرصد التي قام بها الباحث والحوارات التي أجراها، إضافة إلى أفكاره وانطباعاته.

وتخزن المعلومات المجمعة على وثائق وسجلات أو بطريقة إلكترونية. وقد ترتب هذه المعلومات ترتيبا زمنيا منذ بديتها إلى نهايتها (متسلسلة زمنيا)، أو وفقا لمحتواها (ملفات محتوى)

ث. مغادرة الميدان: بانتهاء عملية جمع البيانات، ينتهي العمل الميداني، ويغادر الباحث الميدان. وتبدأ عملية المغادرة بانفصال تدريجي قد يستغرق فترة من الزمن.

رابعا. القواعد الأخلاقية للبحث الميداني: وتشكل معطى هام لا بد أن يحرص الباحثون الأنثروبولوجيون على التقيد بها، بشكل يسمح بإضفاء المزيد من المصداقية والموضوعية على نتائج أعمالهم. ومن أبرز هذه القواعد الأخلاقية نذكر ما يلي:

- لا توجد قاعدة أخرى لتدبير وجود الباحث في ميدانه غير قاعدة احترام أولئك الذين يستقبلون، وليس دائما بطيبة خاطر.
- شرف الأنثروبولوجيا يكمن في رفضها الإدلاء ببعض التقييم عن المجتمعات أو الثقافات. فإن هذا المثال الكبير لأدبيات هذا العلم يطبق أولا على الميدان. وليس سهلا هذا الارتحال عن الذات والطباع، والميراث الثقافي. عندما أنجز الإثنولوجيون تصور مراقبة مشاركة وهمية، تقوم وظيفتها على تذويب وجود المشاهد ضمن المشاهدين، كانوا يقصدون هدم الصورة التي يقدمونها إلى "السكان الأصليين" أكثر من بناء صورة يقدمونها عن أنفسهم.
- أما بخصوص الضمير السيئ الملازم للحالة الميدانية، فإنه يولد من شعور دائم بخيانة أولئك الذين قد توصلنا إلى كسب ثقتهم، بما أننا لم نخبرهم عن " حقيقة " ما جئنا نقوم به عندهم، وأننا سنغادرهم يوما بلا رجوع. وإذا كن هناك انغماس، يجب أن يتحكم به باسم أولوية جمع المعلومات، أو التعرض الدائم لخطر عدم التمكن يوما من المشاهدة وطرح الأسئلة.

ضرورة ألا يقوم هناك ارتباط واضح بين الباحث وإحدى الفئات المتمايزة بالذات في المجتمع موضوع الدراسة. كأن يظهر الباحث وكأنه يتصل بصورة دائمة ومركزة برجال الشرطة والإدارة أو بالقائمين على إدارة منظمات الخدمات الحديثة، أو حتى يبدو متعاطفا مع وضع اجتماعي أو أخر من الأوضاع التي تسود بين فئة معينة، من تلك الفئات الدنيا أو الوسطى أو الارستقراطية من فئات المجتمع.

عدم اطلاع الغير على نتائج بحوثهم وعدم الاتصال بالجماعات المحلية والمثقفين المحليين. لذا فإنه يتعين عليه أن يقدم نتائج بحثه إلى الأنثروبولوجيين المحليين، أو العلماء الاجتماعيين أو رجال الإدارة والحكم الذين يمكن أن يثروا معلوماتهم عن التنوع الثقافي والاجتماعي والسلالي داخل بلادهم.

الكذب وتزييف الحقائق: ونقصد به تحريف حقائق المعاينات الميدانية ونتائج المعايشة التي يقوم بها الباحث، لأغراض استعمارية أو اديولوجية أو غيرها، من خلال تضخيم ممارسات معينة أو تفسيرها بشكل خاطئ عمدا.. إلخ، بغرض تشويه صورة هذه المجتمعات وتسويقها بشكل ينم عن دونية

خامسا. المراجع المعتمدة في المحاضرة:

1) مصطفى تيلوين: **مدخل عام في الأنثروبولوجيا**، دار الفارابي.

2) بيار بونت وآخرون: **معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا**، تر. د. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2011.

3) محمد عبده محجوب: **طرق ومناهج البحث السوسيوأنثروبولوجي**، دار المعرفة الجامعية، 2009.

4) شارلوت سيمور شميث: **موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية**، تر. علياء شكري وآخرون.

5) سيكوك قويدر & قريصات الزهرة: "إشكالية المنهج في البحوث الأنثروبولوجية"، في مجلة: **الحوار الثقافي**، جامعة مستغانم،

6) سوتيريوس سارانتاكوس: **البحث الاجتماعي**، تر. شحدة فارع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات